المقامات اللزومية

ما زال الزمان يرينا من آثار الاندلسيين كل سفر جليل ويكشف لنا عن عنايتهم بجميع العلوم ما يدل على عظيم اقتدارهم وسمو افكارهم لا سيما في العلوم الادبية التي هي عنوان رقة الشعور وصفاء الذوق فقد تفننوا في طرق الانشاء واساليب البلاغة بما لا يدخل تحت الحصر. اسعدني الحظ في الاستانة بالوقوف على المقامات اللزومية وهي عبارة عن خمسين مقامة في مكتبة (جامع لاله لي) للوزير الكاتب الامام ابي الطاهر محمد بن يوسف التميمي السرقسطي الاندلسي انشأها عند ما وقف على ما انشأه الرئيس ابو محمد الحريري بالبصرة وبناها على احسن اسلوب والتزم في نثرها ونظمها مالا يلزم وقد وجدت على ظهر الكتاب ما نصه (المقامات الخمسون) المحتوية على معاني الادب للوزير الكاتب الامام ابي الطاهر محمد بن يوسف بن عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن ابراهيم التميمي المازني السرقسطي ويعرف بابن الاشتركوني ابو الطاهر . قال ابن الزبير : كان اديباً لغوياً شاعراً كاتباً معتمداً في الادب فرداً متقدماً في ذلك في وقته روى عن ابي علي الصفدي وابي محمد بن السيد وابن البادش وابن الاخضر واخذ عنه ابو العباس بن ضا قال : وعليه اعتمدت في تفسير كامل المبرد لرسوخه في اللغة العربية وله المقامات اللزومية الشهيرة وشعره كثير مات بقرطبة يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من جمادى الاولى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ومن شعره

ومنعم الاعطاف معسول اللمى ما شئت من بدع المحاسن فيه
لما ظفرت بليلة من وصله والصب غير الوصل لا يشفيه
انضجت وردة خده بتنفسي وظللت اشرب مائها من فيه

وهاءنذا اذكر المقامة الاولى تفكهة للقراء ورجاء ان يطلع عليها من لهم عناية بنشر آثار السلف فيمثلها للطبع فيفيد ويستفيد وهي هذه :

المقامة الاولى القفرية

قال: حدثنا المنذر بن حمام قال: حدث السائب بن تمام قال: اني لفي بعض البلاد وقد اقويت من الطريف والتلاد استاف الارض واذرع الطول والعرض افتل الدهر في الذروة والغارب وارقب منه كل شارق وغارب قد افردني حتى الامل ونابذني حتى السعي وانهمل عبر سفار ونضو سهامه وفقار ولا صاحب على ضول الاغتراب الا رقراق آل وسراب اذ دفعت الى ابالخ واجارع ومسارح ومشارع فاجلت الطرف في نور وزهر واحلت العيش على جدول انهر واذا ليلة كالحجر يترامون من الكوس بالزجر يتبلون طلاقة ويتبذلون

خلاقة قد نبذوا الوقار واستخلوا العقار واستنفدوا العين والعقار وعوضوا من المسك الدّن والقار ثم عن شمائلهم الرياض وتخجل من ايمانهم الحياض قد غفلوا عن العواقب ولم يشعروا بالزمان المراقب « يُحيون بالريحان يوم السباسب » ويتمون الى اكرم المناصب والمناسب قد لفهم الشباب في بُرُوده وروّاهم من سلسله وبَرُوده يتنقلون بجنيات النعم ويجرون فضول الريط والنعم والكاس قد تمشت في المفاصل فما ترى غير مساعد او مواصل قد نزلوا من الارض وهادا وافترشوا الروض مهادا واذا امامهم شيخ رائع السبلات ضخم العبلات يصغون الى حديثه ويفتنون بقديمه وحديثه فهو يعلمهم من خبره بطرف ويهدي اليهم منه اندى تحف وطُرف يجب البعم البطاله فما يلون منه اسهابًا ولا اطاله فملت الى منتداهم وكنت الذي حياهم وفداهم فقالوا : كرم رائع ومجد ضائع ونضو هازل وضيف نازل وابتدر الشيخ فقال: خبر ذائع وحديث شائع وخب هازل وعودٌ بازل من اين ياشمث ويااشعب كلا امريك اشد واصعب لقد اجترأت على الملوك وتخللت نظم السلوك وركبت المهالك وتوغلت المسالك هل عندك من معزية باهذيل فانك ما شئت من عُذيق او حُذيل أنّى وانت اخو الصعاليك سموت الى ذري الرتب والمماليك فقلت: مهلاً ايها الشيخ مهلاً رويدا مرحباً بك واهلاً ان ترفي وقد نفد زادي وصفر مزادي وطفي شهابي واخلق اهابي وخشن ادمي ونفرعني صاحبي وندمي فلقد فتشت الكواعب وذللت المصاعب وارضيت الآمال وتسوغت الآمال وبذلت الخطير ووصلت التطير واكرمت النزيل ووهبت الجزيل وسحبت فضل الذيل وارسلت طرفي بين الخول والخيل وقدت الجياد ومُتعت القياد ثم لم يكن الا ان تقلبت احوال وتعاقبت سنون واحوال ذهبت بالحديث والقديم واثرت في الصميم والاديم فبدلت من النعيم البوس ومن البشر القطوب والعبوس وعوضت من العذب المجاج بالملح الاجاج ومن الاعزاز بالاذلال ومن الاكثار بالاقلال فابتدر الشيخ يفديني بابنائه ويهديني بهنائه ويقول: انه لكما قال ومن اين لعاثر ان يقال انا اعرف آباءه واجداده وشبدت جموعه واعداده طالما ركب السرير ولبس الحرير وصبت اليه الكعاب وانقصفت دونه الكعاب وخضعت لجده الاملاك وكان به القوام والملاك لقد اطاعت الانداد واجابته الاعداد ودوخ البلدان فذل كلّ له ودان فيالك من دهر لا يبقي على احد ولا يرثي على مستأنس وخد يعنى بالقريب والبعيد ويولع بالشقي والسعيد ومن حق ذلك الفضل ان توصل اسبابه وترفع قبابه ويصان مُذاله ويحلى جيده وقذاله وانتم يابني الاكارم وذوي العمم والمكارم رفوا الافاضل واعطفوا بالتواضل وارحموا عزيزًا ذل وكثيرًا قل ومثريًا ادفع وحائمًا عن مورد كرفع فكل خلع ما عليه والقى بما عنده اليه وخلع عني تلك الاسمال وجاء بما شاء وشئت من كسوة ومال

ثملاً اليمين والشمال واستقبل الجنوب والشمال ثم قال اللهم يارافع الاعدام وجامع الشتات وعالم الخفيات وميسر الخفيات وملطف الاسباب ومؤلف الاحباب متعهم بالمسرات والحبرات والحفهم بالمروط والحبرات وافض عليهم جدواك وزحزح عنهم بلواك واحرسهم عن الغير ولا تجعلهم عظة الامثال والسير وارسل عليهم من ستوك مديدا وخذ بهم من امرك سديدا وقال لي: خذها اليك . واذا كنت معك فلا عليك . فسرنا وقد اظل العشا وسقط عليه العشا يقودني زعم الى اسرته ويحادثني عن يسره وعسرته وجعل يومئ ويشير ويقول هناك العدد والعشير كل له خول وطاعه ولك عليّ إمرة اطاعه فسرت حتى دنا بي الى خيام ومعشر نيام فقال: امكث هاهنا قليلاً حتى اريك جليلاً واكشف لك من امري عجيباً وافود لك سابحاً او نجيباً تحل من متن هذا في انيق وتسمو من ذروة ذاك على نيق ثم تنبو القصر المشيد وتخالف المأمون والرشيد فتخلل تلك الخيام وايقظ النيام فما شعرت الا بالقوم وقد اخذوني باللوم من المنتاب والطارق ولعله الخائن البارحة والسارق والا كف لاتكف واليمين تصفع والشمال لا ترفع ولا قول لي يسمع ولا انا في الحياة اطمع حتى طردوني عن حماهم ورموا بي الى مرماهم لا اقلب طرفاً ولا أقرر حرفاً والشيخ مع ذلك يرميني بسهامي ويعجب من صيبه وجهامي ويذكرني بالعهد ويقول ما احوجك الى المهد ثم انفصلت عني انصلاتا وولى انسراباً وانفلاتا وهو ينشد .

دعا بي الدهر لو تجيب ياحبذا السامع المجيب
كم تصحب الدهر بالاماني يغرك الطرف والنجيب
فخذ حديثاً عن الليالي فكل انبائها عجيب
من خادع الدهر والبرايا فذلك السيد النجيب
المجد فوز الفتى بحظ فما تميم وما تجيب
يارب خذن تركت يوماً وحظه الوجد والوجيب
مجدلاً في التراب يدعى منه سميع فلا يجيب

فعلمت انه الشيخ ابو حبيب فقلت مالداءك يده من طبيب

دمشق محمد علي